الفرع السابع

أثر الوقف في انتقال الطلبة والعلماء والدعاة إلى الله تعالى إلى المراكز العلمية

يقول ابن خلدون[1]:"إن الشباب الذين يترعرعون في القرى والأرياف والتي هي بعيدة عن العمران ولكن تتوفر لديهم الروح العلمية فلا يجدونها في مجتمعاتهم الصغيرة، لذا كان عليهم الهجرة والسفر من أجل الحصول على تعليم فني وتقني في المراكز العمرانية التي تتواجد في المدن الكبيرة المتطورة والمتحضرة بصورة أوسع، وإن مما ساعد مثل هؤلاء الشباب هو ما أغدق على معاهد التعليم والتدريب في المدن من موقوفات جعلت الهجرة إلى مراكز الحضارة من أجل طلب العلم أمراً مشروعاً مثل ما توفر في بغداد وقرطبة والكوفة والبصرة والقيروان وغيرها بما وفرته الأموال الوقفية للنشاط العلمي.

ويتحدث ابن خلدون عما شاهده في القاهرة من التطور العلمي والحضاري والحياة المدنية خاصة في تعليم العلوم التجريبية وهو يقول: كل هذه النشاطات العلمية قد ساعد عليها ما حدث خلال القرنين اللذين سبقا زمانه وخاصة زمان صلاح الدين الأيوبي الذي أوقف أراضي زراعية ومباني وبيوتًا وحوانيت للمدارس ثم ما خصصه من بعده الأمراء الأتراك والمماليك من أوقاف لبناء المدارس والجامعات والتكايا والزوايا في أوقافهم هذه إلا أن تلك الأماكن لم تكن للتعبد فقط بل جعلت مراكز للبحث والدراسة والتأمل العلمي خصصت لها الحوانيت والأسواق والمصانع والأراضي الزراعية كأوقاف لإدامتها واستمرارها، كل ذلك أدى إلى أن يفد إلى القاهرة طلبة العلم وعلماء من مغرب العالم الإسلامي ومن مشرقة كما وفد إلى مصر الطلبة من المغرب الأقصى وتخوم العالم الإسلامي، كل ذلك في سبيل الحصول على التعليم المجاني" [2].

---

(١) هو عبدالرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي الأصل التونسي ثم القاهري المالكي المعروف بابن خلدون، ولد بتونس سنة ٧٣٢هـ، وله مؤلفات في التاريخ الاجتماعي ، وتوفي سنة ٨٠٨هـ. انظر: شذرات الذهب لابن العماد ٧/ ٧٦ ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٥/١٨٨.

(٢) مقدمة ابن خلدون- عبد الرحمن ابن خلدون-ص٤٨١-٤٨٢- بدون تاريخ ورقم الطبع- دار الجيل- بيروت- لبنان.

وقد كانت هناك مدارس فقهية عنيت بتدريس المذاهب الفقهية الأربعة منها ما يدرس مثلاً الفقه الحنفي أو الحنفي والمالكي، ومنها مدارس ثلاثية المذهب تدرس ثلاثة أو أربعة مذاهب وذلك حسب نص الواقف في وقفيته.

"ومما ذكره الرحالة العربي" ابن جبير" في رحلته إلى المشرق عن مدينة الإسكندرية وعن انتشار التعليم فيها في زمنه نتيجة وفرة الأوقاف على المدارس قوله: ومن مناقب هذا البلد ومفاخره المدارس والمجالس الموضوعة فيه لأهل العلم والتعبد يفدون من الأقطار النائية، فيلقى كل واحد منهم ركناً يأوي إليه، ومدرساً يعلمه الفن الذي يريد تعلمه"[1] .

"وابن بطوطة يتحدث عن وروده إلى مصر والعراق وسوريا؛ حيث وجد أنها عامرة بالمعاهد العلمية، ويتحدث في رحلته عن مدى الرخاء الذي تتمتع به المدارس الوقفية في زمانه، وكيف استفاد هو منها سواء في دمشق أو في بغداد، ويذكر أحوال عشرين مدرسة جامعة في دمشق عاشت على أموال البر والخير والوقف" [2] .

"إن ابن جبير عندما زار الشرق ورأى تعداد المدارس والأقاف التي تنفق عليها والوفرة من الرفاه الاجتماعي والاقتصادي الذي كان ينعم بها الطلبة وأساتذتهم وناشد أبناء المغرب العربي إلى أن يرحلوا إلى ديار مشرق هذا العالم لتلقي العلم والاستفادة من هذه الفرص المتاحة إذ يُعبر عن ذلك بقوله: تكثر الأوقاف على طلاب العلم في البلاد الشرقية كلها، وبخاصة دمشق، فمن شاء الفلاح من أبناء مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد فيجد الأمور المعينة على طلب العلم كثيرة وأدلها فراغ البال من أمر المعيشة" [3] .

"إن من ولع المسلمين بالتعليم واهتمامهم به أننا نشاهد – حتى الغزاة– الذين دمروا العالم الإسلامي وحرقوا المكتبات والكتب والمدارس نجدهم بعد اعتناقهم للإسلام بفترة قصيرة جداً بدأوا في إيقاف الأموال وتشييد المدارس والإنفاق عليها مباشرة.

---

(١) انظر: رحلة ابن جبير– محمد بن أحمد بن جبير–ص ٢٥٠ .

(٢) انظر: رحلة ابن بطوطة– ابن بطوطة ص ٣٧ وما بعدها وص ٢٢٥.

(٣) من روائع حضارتنا– مصطفى السباعي ص ١٣٥.

ففـــي بخـــارى أنشأت أم هولاكو بعد إسلامها مدرستين، إذ أوقفت عليهما الأموال لبنائهما وللإنفاق على طلبتها الذين بلغوا ألفاً لكل منهما.

وفي دمـــشق وجـــدت اثنـــتان وخمسون مدرسة اختصت بتدريس الفقه الحنفي فقط، وثـــلاث وستون مدرسة أخرى اختصت بتدريس الفقه الشافعي وإحدى عشرة مدرسة للفقه الحنبلـــي كل هذا في دمشق وحدها عدا المدارس التي تدرس المذاهب مجتمعة أو مدارس الطب والربط والجوامع التي كانت مراكز تعليمية أيضاً" [1].

لقد كان للوقف أثر طيب وعظيم على العملية التعليمية، ففي الوقت الذي لم تنتشر فيه الطباعة، "كانت عملية استنساخ الكتب تجرى على أيدي نساخ يدويين تخصصوا في هذا العمل في ديـــار الإســـلام، غـــير أن الإنفاق عليهم وعلى معيشتهم واحتياجاتهم كان في الغالب من الميـــسورين، ويعتمد على أموال الوقف التي خصصت لدور العلم وخزائن الكتب، فقد بذلت وأنفقـــت الأموال الواسعة التي أتت من مخصصات الوقف من أجل استنساخ أو الحصول على الكتاب الواحد" [2].

---

(١) الـــدارس في تـــاريخ المـــدارس- عبد القـــادر النعيمي الدمشقي ص ٧٥- ط١ – ١٤١٠هـــ/ ١٩٩٠م – دار الكتب العلمية – بيروت - لبنان.

(٢) الدور الاجتماعي للوقف ص ٢٦٣.